معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 17/ العدد 2 (ديسمبر 2022): ص.ص:602-619

الكتابة الروائية المعاصرة بين ايديولوجيا الواقع وشعرية السرد

Contemporary fiction writing between reality ideology and poetic Narration

أ.د. سعاد شريف*

جامعة تيسمسيلت، الجزائر، cherif.souad@cuniv-tissemsilt.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/05؛ تاريخ القبول: 2022/09/29؛ تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

الرواية أكثر الأجناس الأدبية قدرة على إدماج مختلف الثقافات والأفكار ونقلها من صفتها العلمية أو الفكرية إلى طاقة فنية وجمالية، ففيها تمتزج النصوص الغائبة وتتداخل معها الأجناس الأدبية، لتساهم كلها في تماسك بنيتها السردية وانسجام علاقاتها الأساسية، وإذا كانت الايديولوجيا وما تزال ضرورة إبداعية، خاصة في ضوء الوعي الحديث الذي شكلته مختلف العلوم لفهم مشكلات الواقع فقد ساهمت ايضا في تدعيم واقعية المشاهد السردية وبناء رابطة قوية بين النص والمتلقي.

فإن كل ذلك يدعونا إلى طرح إشكالية البحث التالية: كيف للروائي أن يحول محتوى الايديولوجيا بخلفياتها الفلسفية والفكرية والسياسية إلى مادة إبداعية تنغمس في شعرية المتن دون أن ترهق المبدع والقارئ؟.

الكلمات المفتاحية: ايديولوجيا؛ رواية؛ شعرية؛ فن؛ معرفة؛ يوتوبيا.

Abstract:

The novel is the most literary genre capable of integrating different cultures and ideas and transferring them from being their scientific or intellectual quality to an artistic and aesthetic energy, in which the absent texts mix and the literary genres overlap with them, all of which contribute to the coherence of its narrative structure and the harmony of its basic relations. If ideology is and still is a creative necessity; Especially in light of

* المؤلف المرسل.

the modern awareness formed by the various sciences to understand the problems of reality while strengthening the reality of the narrative scenes and building a strong bond between the text and the recipient, all of this calls us to pose the following research problem: How can the novelist transform the content of ideology, with its philosophical, intellectual and political backgrounds, into a creative material that immerses itself in the poetics of the text without exhausting the creator and the reader?

Keywords: Ideology; a novel; lattice; art; knowledge; Utopia. .

مقدمة:

تحاول الرواية العربية المعاصرة رصد مختلف الظواهر الإنسانية داخل متنها السردي وتحويلها إلى عمل فني وإبداعي من خلال الانتقاء الجيد لهذه الاهتمامات، فعملية الاختيار أمر عسير، وسط زحام الممكنات وإغراءاتها للوقوف على البؤر الأكثر توهجاً، والأقل استطرادا وتشتتاً [(1)]؛ حيث إن الإلمام بكل تلك القضايا المتشعبة يشكل بؤرة تكثيفية للنص الروائي.

ولقد لاحظ "باختين" أن جنس الرواية يقوم على خاصية أساسية تتمثل في الانفتاحية التي أسندها للرواية من أجل تمييزها عن بقية الأجناس الأدبية، فقد اتصل جوهرها بالحاضر الذي هو دائم التطور، وهي حتى في ابتعاد مادتها الملموسة (الحكاية) عن الراهن، فإنها – كما يؤكد- لا تكون إلا إجابة عن سؤال الراهن[(2)].

فالثقافة إلى جانب الموهبة تعد عنصراً أساسياً لكل تجربة إبداعية يحاول من خلالها الروائي ملامسة ذلك الوهج الثقافي وصبغ نصه بالعالمية جاعلا من اللّغة طقساً اجتماعيا من التعابير، وحيثما وجدت فهي لغة واحدة تعكس مقولات العقل الخالدة[(3)]، والمرجعية الثقافية للروائي في هذا الجانب تعد سنداً قوياً له في عملية الكتابة وعنصراً مهماً من عناصر عدته الفنية، وبهذا تنفتح دلالات الرواية لأنها مزيج متصل بتعدد

(1) ينظر: جهاد عطا نعيسة، في مشكلات السرد الروائي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001، ص284.

(2) ينظر: ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، تر: حمال شحيد، معهد الإنماء الحضاري العربي، بيروت، 1986، ص54.

(3) رولان بارت، درجة الصفر للكتابة، تر: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002، ص56.

اللغات والأصوات وتفاعل الكلام والخطابات والنصوص ضمن السياق العام للمجتمع.

أولا: تعريف الايديولوجيا:

اختلفت تعريفات الايديولوجيا من مجال إلى آخر إذ نجد هذا المصطلح قد تقمص أدورا متعددة من الفلسفة إلى الاجتماع إلى السياسة، فليست « الصياغة الكاملة لهذه النظرية من انجاز جماعة واحدة، كما أنها ليست مرتبطة ارتباطا مقصورا على مركز اجتماعي وفكري واحد»[1]، ويؤكد "مانهايم" أنه لا يملك تصور تاريخي كافي عن التطور الدلالي لمصطلح الايديولوجيا، كما أنه لا يملك الاحاطة الكاملة بمعانيه، ولكن يبقى التعريف الجوهري الخاص بعلم الأفكار جزء مهما في أي توجه استعملت فيه.

فلقد ارتبطت الايديولوجيا بعلم الأفكار في بدايات ظهورها؛ فهي توجه علمي يسعى إلى دراسة الأفكار السائدة في ذلك العصر أو المجتمع أو النص من خلال الملاحظة الدقيقة والقوانين المحددة، ويمكن الاشارة إلى ايديولوجيا عصر ما أو ايديولوجيا جماعة تاريخية – اجتماعية محددة- كايديولوجيا طبقة مثلا، عندما يكون هدفنا هو أن نوضح سمات وتركيب البناء الكلي لعقلية العصر أو هذه الجماعة ذلك أن هذا المصطلح ارتبط بشكل وثيق بالماركسية ومفهومها للطبقية[2]، فلكل منا أفكاره التي تعتبر نتاج تفاعل ذاته مع الوجود الاجتماعي والاقتصادي وهذا ما ركزت عليه الماركسية من خلال تبني فكرة الدفاع عن الطبقات المظلومة اجتماعيا إذ ربطها لينين بالاشتراكية.

وما يهمني من خلال هذه الدراسة الطابع الاجتماعي والسياسي للايديولوجيا باعتبارها تشكل بؤرة مركزية في الكتابة الروائية المعاصرة والتي تعمل على مواكبة الأحداث الوطنية والعالمية المؤثرة في الهوية وصيرورة الحياة لشخصياتها المختارة، ولكن في البداية يجدر بي تقديم تعريفات لهذا المصطلح حتى يستوعب القارئ كيفية توظيفه في التحليل.

فالايديولوجيا لا تدل فقط «على المعتقدات التي توجد لدى الناس أو نسق القيم أو محصلة الأهداف والمعايير، وإنما تتضمن كل هذه الجوانب مجتمعة بالإضافة الى

(1)مانهايم، كارل" :الايديولوجيا واليوتوبيا"، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ترجمة محمد رجا الدريني، شركة المكتبات الكويتية، ط1، 1980، ص: 146

(2) ينظر: مانهايم، كارل" :الايديولوجيا واليوتوبيا، ص: 129

نظرة الإنسان للأشياء المحيطة به، والتصور الذي يشكله عن العالم وهي في الوقت نفسه تشير إلى مجموعة الخبرات والأفكار والآراء التي يستند عليها في تقويمه للظواهر المحيطة به»[1]، فمفهوم الايديولوجيا من أكثر المفاهيم تعقيدا وإبهاما ويرجع ذلك لصعوبة تحديدها في المجال الاجتماعي والفلسفي.

فهي تتجاوز الأفكار الفردية إلى أشكال تأسيسية داعمة للوجود الإنساني مستندة في ذلك على تاريخانية الأفكار والقيم والتجارب الإنسانية المشكلة للهوية والتاريخ والحرية والمستقبل، كما ارتبطت الايديولوجيا بالسياسة من خلال أحقية الطبقة العليا في امتلاكها دون البقية فهي «مرتبطة بمصالح الفئات التي تتصارع لتصل إلى السلطة السياسية، والمصلحة هنا تعني المصلحة الاقتصادية الجلية، حيث ترى ذاتها حقيقة مطلقة ومنافساتها غلطا وتدليسا»[2].

إلا أن علماء الاجتماع قد جابهوا فكرة الاحتكار الايديولوجي باعتبارها عاملا مشتركا بين كل الطبقات ولكن بزاوية نظر مختلفة ، فلا يوجد طبقة اجتماعية واحدة تحتكر لنفسها المعنى الكلي للحقيقة الإنسانية [3]، وهذا يضعنا أمام نظرية رؤية العالم لجورج لوكاتش الذي حاول الوقوف عند نظرة الكاتب للعالم من خلال أعماله.

تقوم هذه النظرية أساسا على الوعي الايديولوجي عند كل طبقة والذي قسمه إلى وعي زائف يخص الطبقة العليا البرجوازية، أما الوعي الحقيقي فكان منحصرا في الطبقة الدنيا أو البروليتاريا فالوعي الصحيح conscience authentique : عند لوكاتش هو وعي البروليتارية غير المهيمنة[4] ، حيث تسعى لكشف زيف الطبقة العليا التي بدورها تفرض وعيها على المجتمع بتزييفها الحقائق الجوهرية وتنفي عنها العنصرية والطبقية التي تعد صناعتها بامتياز، ومن هذه النظرية جاءت البنيوية التكوينية لغولدمان والتي أرى أنها أنسب المناهج لدراسة هذه الظاهرة من خلال مقاربة ايديولوجية فنية في الكتابة

(1) محمد المسيري عبد الوهاب، الايديولوجيا الصهيونية، دراسة في عالم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983، ص135.

(2) عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط7، 2003، ص47.

(3) ينظر: إبراهيم زكريا، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، د ت، دط، 183.

(4) ينظر:جورج لوكاتش، التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة : حنا مينا، دار الأندلس، 1979 ، 54.

الروائية من خلال « اقرار العلاقات المباشرة بين البنية الاجتماعية- الاقتصادية من جهة وبنية الأدب من جهة أخرى، مدخلا تحت مفهوم البنية كلا من الشكل والنوع الأدبي ومبادئ تصوير الواقع»[1]، فنظرية الانعكاس ورؤية العالم والبنيوية التكوينية اتخذت كلها من الرواية القاعدة التطبيقية التي أسسوا عليها مفاهيمهم الاجرائية لما تتوفره النصوص السردية من مادة خصبة للدراسات الاجتماعية ومنه تأسس علم سوسيولوجيا الرواية، ومن هذا الطرح وجب الوقوف عند الفروق الجوهرية بين الايديولوجيا واليوتوبيا.

1. الفرق بين الايديولوجيا واليوتوبيا:

تتمظهر العلاقة بينهما من خلال الصراع الطبقي القائم في المجتمع الواحد أو بين المجتمعات بشكل عام، حيث تتبنى الطبقة السياسية الحاكمة ايديولوجيا مهيمنة ذات سلطة نافذة وفاعلة في الميدان السياسي والاقتصادي، لنجد أن الطبقة الدنيا البروليتارية تحلم باليوتوبيا وهي «ذلك التوجه الذي يتجاوز الواقع و يعمل- في الوقت نفسه- على تقويض مساراته»[2]، لتنطلق من الواقع مثلها في ذلك مثل الايديولوجيا ولكنها بتوجه مغاير حالم بعالم أجمل يسوده الأمن والأمان والعدل والمساواة، فهي نوع من التفكير يتمحور أساسا حول تمثل المستقبل المزهر واستحضاره بطريقة مستمرة[3].

فكلاهما يمثل عالم الأفكار ولكن من وجهة نظر مخالفة تتمركز وفق منظور كل طبقة محاولة الحفاظ على مصالحها ومكانتها وتسعى لتحقيق أهدافها وإرساء أفكارها وقيمها وبها يتحدد المركز والهامش؛ حيث أن «الايديولوجيا تعمل على حفظ الجماعة، بينما تؤدي اليوتوبيا وظيفة تحريرية لأنها ترى بمنظار المستقبل»[4]، وكأنها تخلق توازنا خفيا للعالم لأن الاستسلام للايديولوجيا المهيمنة يعني التوقف عن التطور والحلم

(1) السبرغ ياكوف، المنحى السيسيولوجي في النقد الأدبي، ترجمة نوفل نيوف، مجلة الآداب العالمية، اتحاد كتاب العرب، دمشق، عدد 1، 1978، ص73.

(2) عبد الله العروي، المرجع السابق، ص47.

(3) ينظر:عمرو عيلان، الايديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، ط1، 2001، ص15- 48.

(4) عمرو عيلان، المرجع السابق، ص15- 48.

والاكتفاء بما هو موجود.

ويحدد لنا بول ريكور مستويات التعالق بينهما فيما يلي:

أ- عندما تكون الايديولوجيا طاغية مستبدة: تظهر اليوتوبيا ضعيفة وبعيدة المنال، ومن المستحيل تحقيقها في الوضع الراهن، فهي تضيق عليها المجال لتبقى سجينة الأحلام، حيث تدافع الايديولوجيا عن مصالح «الفئات التي تتصارع لتصل إلى السلطة السياسية، والمصلحة هنا تعني المصلحة الاقتصادية الجلية، حيث ترى ذاتها حقيقة مطلقة ومنافسيها غلطا وتدلسا»[1]، لتجد اليوتوبيا نفسها أمام خيار الثورة على النظام السائد.

ب- الايديولوجيا ذات الطبيعة الشرعية والقانونية: فهي تسمح هنا لليوتوبيا في التحقق والنمو من خلال التناوب على السلطة الفعلية؛ فحين يكون القانون فوق الجميع تسوده الشفافية، وهذا ما يؤكده مانهايم في أن كل فترة في التاريخ تحوي على أفكار تسمو على النظام القائم، ولكن هذه الأفكار لم تفعل بصفتها يوتوبيات بل كانت بالأحرى ايديولوجيات متعايشة مع بعض طالما ظلت مندمجة بشكل عضوي ومتناسقة مع النظرة الشمولية للعالم[2]، أي أنها تشارك الطبقة الحاكمة في الفكر والرؤيا المستقبلية.

ت- يتمثل الدور الايجابي للايديولوجيا في تحقيقها للكائن في جو ديمقراطي سلس: في حين يتمثل دور اليوتوبيا في الكشف عن الممكن واستشراف المستقبل، كأنها الحافز للتحرر والتطور والرقيب الأول على الايديولوجيا الحاكمة، كما يتمثل دورها في تكوين الذات؛ ذلك أن مقولة الذات تكون كل الايديولوجيات [3].

2. الرواية والايديولوجيا:

مهما طغت رمزية وشعرية الأدب إلا أنه مرتبط بشكل وثيق بقضايا مجتمعه الفكرية والمادية وحتى السياسية، فعلاقة الأدب بالايديولوجيا تظهر في كونه خطابا

(1) عبد الله العروي، المرجع السابق، ص47.

(2) ينظر: مانهايم، كارل" :الايديولوجيا واليوتوبيا"، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ترجمة محمد رجا الدريني، شركة المكتبات الكويتية، ط1، 1980، ص: 247

(3) ينظر: بول ريكور، محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2001، ص122.

أسس تحت تأثيرها وفي كونه هو الآخر ينتج أفكارا ايديولوجية فالعملية الإبداعية متبادلة المنفعة (التأثر والتأثير) حيث تعمل الأفكار على بلورة الأدب في اطار العصر الذي أنتج فيه، وعليه فالعلاقة بين الأدب والايديولوجيا علاقة مركبة ومتداخلة ومعقدة.

ويرى بعض النقاد أن نشأة الرواية الجديدة ارتبط بظهور المجتمع البرجوازي وصعود الرأسمالية بفعل تشكل ايديولوجيا جديدة تقوم على نوع من الصراع الاقتصادي والمادي، تحول معه الإبداع كما تحولت كل مناحي الحياة وتغيرت حاجيات القارئ من الملحمية الغنائية إلى النثرية السردية التي تحاكي واقعه الجديد وطموحاته وتبني شخصياتها وفق المعطيات المستجدة، فعندما ينتهي الصراع الايديولوجي في الرواية تبدأ معالم ايديولوجية الرواية في الظهور على حد تعبير لحميداني[1]، كون الرواية نتاج حقبة زمنية معينة كرست نمط كتابي مغاير لما سبقها كعنوان أساسي لتلك المرحلة.

فالايديولوجيا بأفكارها وصراعاتها وتأثيراتها شكلت احداثيات العصر المتغيرة مع تغير الطبقة الحاكمة، فهي تساهم أيضا في بناء النصوص السردية حيث تعتبر مادة أولية من مواد بناء الرواية، إنها ليست مقتبسة من الواقع ولكنها تجسيد لواقعية الايديولوجيا نفسها: أي مظهر من مظاهرها فالنص إذ ليس موجودا خارج الواقع الايديولوجي ولكنها منغمس فيه [2]، فكما أثر ظهورها على مستوى المواضيع نجده قد تجسد أيضا على مستوى الأسلوب والشكل اللغوي، فتحولت من النمط الكلاسيكي في الكتابة إلى ما سمي بالرواية الجديدة.

تعمل الايديولوجيا على اغناء المادة القصصية من خلال استقطاب الآخر من نصوص وأفكار ومقاربات وأجناس فنية وأدبية وهذا ما سمته كريستيفا بمصطلح الايديولوجيم وتقصد به «الوظيفة التناصية التي يمكننا قراءتها وهي تتمظهر ماديا على مختلف مستويات بنية كل نص، والتي تمتد خلال صيرورتها مانحة إياه كل مطابقاتها التاريخية والاجتماعية»[3]، فالأحداث التي يشهدها عصرنا المتسارع تجعل من الفن أداة ضرورية لمواكبة ومواجهة هذا المد الكبير والواسع من الايديولوجيات والانقسامات

(1) ينظر: حميد لحميداني، النقد الروائي والايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص32.

(2) ينظر: حميد لحميداني، المرجع نفسه، ص7.

(3) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 2001، ص20.

والحروب الاقتصادية.

وهنا لابد من التفريق بين ايديولوجية الكاتب التي يقحمها عمدا في النص مما يسبب خللا فنيا واضحا وبين ايديولوجية الرواية التي تحمل فكرة ذات مغزى تتناسب مع تطور الأحداث وتفاعل الشخصيات، فهذا التفاوت الموجود عادة بين ايديولوجيا الكاتب والايديولوجيا المعبر عنها في ابداعه الروائي ينعكس على هذا الابداع غالبا بصورة ايجابية، إذ يوجه هذا التفاوت الايديولوجي نحو الاستيعاب الشمولي للواقع، كما يطبع الأبطال بنوع من التناقض الخلاق، فقد يجمع هؤلاء الأبطال بين فكر طوباوي، وبين دعوة تحررية[1]، وهذا مما جعل النقاد يفرقون بين رواية الايديولوجيا كنوع سردي يتخصص في طرح قضايا ايديولوجية واضحة كفكرة مركزية، وبين ايديولوجيا الرواية التي تتسلل في تمفصلات النص دون أن تشكل المحور الرئيسي المهيمن.

ثانيا: شعرية الرواية

تعتمد الرواية المعاصرة على اللغة الشعرية كنمط لغوي جديد تلعب فيه الصيغ اللغوية دورا محوريا يجذب القارئ وينفتح على أجناس أدبية أخرى ذلك أن اللغة أضحت شخصية محورية في دعم البنية السردية، فالشعرية Poetics مصطلح قديم حديث في ذات الوقت عرف منذ أرسطو في كتابه "فن الشعر" أما مفاهيم هذا المصطلح متنوعة وإن انحصرت فكرتها العامة في البحث عن «القوانين التي تتحكم في الإبداع»[2]. وتأتي الصعوبة هنا في تحديد الأدب من كونه منتج خيالي مرتبط بمكنونات النفس فقط أو في علاقته واقعيا بما حولها.

يقول تودوروف في ذلك « من يجرؤ على أن يفصل بين الأدب وبين ما لا يمت بصلة إليه؟ فهناك منوعات أدبية لا تحصى تعرض نفسها علينا ضمن منظورات مختلفة جدا»[3]، فالشعرية عنده لا تهتم بالعمل الأدبي فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النوعي، وكلّ عمل عندئذ لا يعتبر إلا تجليّا لبنية محدودة وعامة ليس

(1) ينظر: حميد لحميداني، المرجع السابق، ص63.

(2) عثمان ميلود، شعرية تودروف، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص8- 9.

(3) تدوروف، مفهوم الأدب، تر: منذر عياشي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط: 1، 1990، ص36.

العمل إلا إنجازا من إنجازاتها الممكنة، فالعالم إذن لا يعني بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، ومن أجل أن يمسك الناقد بأطراف الوظيفة الشعرية في أي نص فني يضع لذلك (ياكبسون) قانون عام للغة الشعرية، وعاد في ذلك إلى مبدأ المحورين الذي عرضه (دي سوسير) وهما محور الاختيار Selection ومحور التأليف Combinaison[1].

وبتحويل "جيرار جينيت" السؤال الذي طرحه "ياكبسون" من صيغة ما الذي يجعل من رسالة لفظية نصا أدبيا؟ إلى صيغة: ما الذي يجعل من النص كتابا؟، يكون بذلك قد نقل الشعرية الأدبية إلى سؤال النص الموازي، الذي يدخل بشكل مباشر أو خفي في إنتاج النص الحاضر وتشكيل شعريته[2]، وبهذا يتجه وعي "جينيت" إلى المتعاليات النصية باعتبارها موضوعا جديدا للشعرية وهذا ما حدده في كتابه جامع النص، لتنفتح الشعرية على سياقات نصية أخرى تندمج في النص بطريقة فنية تعيد من خلالها تشكيل هويته بحيث تتطابق مع السياق الجديد للنص الحاضر.

1. بين الشعرية والايديولوجيا:

ومن هنا نطرح أسئلة هذا البحث وهو كيف للكاتب المزج بين الايديولوجيا بثقل أفكارها وزخمها الاجتماعي وطابعها السياسي وبين شعرية السرد؟، وهل له القدرة على إذابة هذه النصوص والخطابات الوافدة من خارج النص إلى متنه السردي دون أن تشكل ثقلا على مساره الفني والجمالي الذي يميز الفن الروائي في المقام الأول؟.

وللإجابة عن هذه الأسئلة وللوقوف عند نقاط الالتقاء ومواطن المزج الجمالي اخترت رواية الشمعة والدهاليز للطاهر وطار وثلاثية أحلام مستغانمي، لما تحتويه هذه النماذج من تداخل جمالي بين الخيالي والواقعي ولما ترسمه من فسيفساء جمالية تفتح شهية القارئ للقراءة والاستزادة بل والمشاركة في انتاجية النص، ولتبيان هذه المزاوجة وكيفية اندماجها مع متن النص الروائي اخترت فكرة الوطن كدعامة أساسية في تشكيل هوية الإنسان وانتمائه وكعنصر مهم في العلمية الابداعية.

(1) ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان، ط1، 1996، ص73.

(2) ينظر: نبيل منصر، الخطاب الموازي، للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للنشر، ط1، 2007 ص07.

وأهم ما تشترك فيه النصوص المختارة هو الصراع القائم بين المثقف والسلطة، وهنا تتشكل لنا ثنائية (الايديولوجيا واليوتوبيا) وكذا التركيز على تاريخ الجزائر الثوري أمام ايديولوجيا الاستعمار وبعده ايديولوجيا الحزب الحاكم الواحد بعد الاستقلال، لنرصد كذلك تحول يوتوبيا الجماعات الدينية إلى ايديولوجيا ثورية مسلحة حولت مسار الفرد الجزائري في العشرية الحمراء وسنوات المحنة.

ولأن البحث لا يتحمل ذكر كل الايديولوجيات المنبثة في النماذج المختارة اقتصرت على الرئيسي منها وخاصة فترة العشرية السوداء لما تحمله من صراعات فكرية وسياسية ودينية كانت الشرارة التي اشعلت فتيل الفتنة .

2. الايديولوجيا والدين:

إن العلاقة بين الدين والايديولوجيا قديمة قدم الفكر الإنساني في بحثه عن كينونته في هذا الوجود وإن اختلفت التسميات، كما أن هذا التعالق يؤثث للكثير من كواليس السياسة التي تعي جيدا دور الدين في حياة الإنسان والمجتمعات البشرية من معتقدات ومقدسات وعبادات تتسلل إلى كل مناحي الحياة بوعي أو بدون وعي منه، فالدين سلاح ذو حدين قد يرتقي به المجتمع وقد ينحدر إلى القاع إذا ارتبط بجماعات متطرفة تشعل نار العنصرية والعصبية .

يشير الحيز الزمني لرواية الشمعة والدهاليز للمرحلة الانتقالية التي تبلورت قبل وبعد الانتخابات التشريعية في 1992، والتي نجح فيها التيار الاسلامي بالأغلبية ولكن النظام الحاكم آنذاك ألغاها ولم يقبل تسليم السلطة وواجه المظاهرات بالسلاح، لتدخل البلاد بعدها في دوامة عنف استمرت لعشر سنين متوالية، فهذه الصراعات الايديولوجية شكلت أحداث الرواية وظهر هذا الجدل بين (التيار الحاكم/ والتيار الاسلامي) من خلال شخصية البطل عامر بن ياسر المثقف والحامل لشمعة الفكر، وهو « شاعر باللغة الفرنسية ومهندس أدرس علم الاجتماع وأحب كل ما يمس لغتي العربية أما ما عدا ذلك فلا أهمية له»[1] ، ليشكل نموذج عن الشاب الجزائري المثقف الذي يحلم بمستقبل أفضل وله أفكار يوتوبية لا تسمح الصراعات المحتدمة بتحقيقها.

(1)الطاهر وطار، رواية الشمعة والدهاليز ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، 1995، ص: 30.

يحمل عنوان الرواية اشارات تعبر عنها ثنائيات (النور/ الظلام)، (العلم/ الجهل)، (التحرر/ العبودية) (الايديولوجيا/ اليوتوبيا)، (الماضي/ الحاضر)، إلا أنها غير متكافئة فالشمعة مفرد بنورها الضئيل أما الدهاليز جمع شديدة الظلمة فالكفة تميل نحو الظلم والظلام والجهل والماضي، مما جعل المثقف بعد الاستقلال يعيش اغتراب فكري ووجودي يصل لحد اللاانتماء، وشكل فجوة عميقة بين السلطة والشعب.

وأول مظاهر هذا الصراع كان بين شخصية ياسر ووالده « لم يتمكن أبي من أن يكون سوى واحدا منهم، فقد كان التيار قويا فانساق في الدهاليز المظلمة يمتصه سرداب ثم يقذفه لسرداب آخر، انكب على مشاكله واحتفظ بلقاءات دورية مع بعض قادة الثورة يلعن الحاضر ويتغنى بالماضي متشائما من المستقبل لكونه ليس وزيرا أو واليا أو سفيرا»[1]، يرفض ياسر -بنموذجيته اليوتوبية- المركزية المتوارثة من الثورة والتي جعلت سلطة الحزب الواحد هي المسيطرة على كل مناحي الحياة، فلم تقدم إلا شعارات ثورية انتهت صلاحيتها بانتهاء المستعمر الفرنسي الذي غادرنا شكلا وخلف لنا ايديولوجيته وثقافته ولغته، ويتضح هذا أكثر من خلال حوار البطل مع والده.

- «قال أبي يعضني:
- إنكم تخلطون السياسة بالدين.
- فسألته:
- ألم تفعلوا ذلك قبلنا، في الخمسينيات وما قبل الخمسينيات.
- بلى.
- ولماذا تريدون حرماننا من اتباع خطاكم أم أنكم تخافون من تطبيق الدين؟.. الدين هو الدين والحياة هي الحياة»[2] .

تطرق وطار في روايته هذه إلى المرحلة الانتقالية بعد الاستقلال والتي وسمت بتفشي الجهل والدخول في دهاليز اللعبة السياسية واحتكار المناصب والفساد دون الالتفات إلى المجتمع وتطوير الحياة الفكرية والاقتصادية على السواء لما لهما من دور

(1)المصدر نفسه، ص: 54

(2)المصدر نفسه، ص:92-93

حاسم في تطور الأمم.

فكان ياسر يتابع الأحداث التي خلفتها الانتخابات التشريعية بعد إلغائها بنوع من الخوف والترقب، فنجده يصف لنا تلك المظاهرات الليلية « يتقدمون بالسرعة نفسها إلى الوراء، بينما أصواتهم تتعالى في نبرة واحدة لا إله إلا الله محمد رسول الله، عليها نحيا وعليها نموت، وعليها نلقى الله»[1] ، يتجلى من خلال هذا المقطع السردي الأصول الايديولوجية التي تنطلق منها الجماعات الإسلامية من خلال شعاراتها المستقاة من الخطاب الديني وحتى أن المنخرط فيها أطلق عليه اسم المجاهد في سبيل الله، أما المستهدف فهو الأخ وابن العم لا هم بأعداء ولا كفار ليتحول مسارها من ضد السلطة إلى ضد الشعب، ويتضح الأمر أكثر من خلال الحوار الذي جرى بين ياسر وبين البعض منهم أمام ساحة 8 ماي:

- «لماذا لم ترد السلام عليكم؟
- ابتسم، الشاعر، ابتسامة جد صغيرة وسألهم: وأنتم من تكونون؟
- إخوة في الله.
- كلنا إخوة، إنما هذه العقارب بين أيديكم لا يحملها عادة إلا الزبانية.
- اطمئن، لم يعد منذ اليوم هناك زبانية.
- ماذا يجري؟
- لقد قامت.
- من؟
- الدولة الإسلامية، الخلافة الإسلامية، الجمهورية.
- الحكم الإسلامي»[2] .

تعددت من خلال هذا المقطع تسميات الدولة من (خلافة إلى جمهورية إلى حكم) وكلها تدل على رجوع أصحابها إلى التاريخ الاسلامي في عصوره الذهبية عندما كان الحكم بيد الخليفة، ولتبيان كل هذه التوجهات الدينية استعان الروائي بآيات قرآنية وأحاديث

(1)المصدر نفسه، ص: 20

(2)الطاهر وطار، رواية الشمعة والدهاليز، ص: 25- 26

نبوية وأحداث تاريخية منها خلافة علي كرم الله وجهه وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما وعمر رضي الله عنه، وذكر أحمد بن حنبل وتحديه للخليفة، يقول ياسر (بطل الرواية)«يحاول شيوخنا وعجائزنا دون جدوى في كل مرة ايقاد شمعة ما للاستنارة بها، مرة يتحدثون عن السيد على ابن عم رسول الله، ومرة عن السيد عبد الله، وأخرى فاطمة... تارة يحرمون كل شيء وتارة يحللون كل شيء، كل المسائل بقيت قياسا»[1] .

فالثقافة الدينية المتوارثة بين الأجداد اكتنفها الكثير من التحوير والتغيير قد يصل لحد الخرافة، فتفشي الجهل الديني بالفقه والسنة والتفسير كان السبب الرئيسي في سهولة اقناعهم بضرورة الجهاد؛ لأن المجتمع الجزائري وقتها لم يكن يمتلك معرفة دينية راسخة تحصنه من هذه الجماعات المسلحة.

ولقد استفاد الروائي أيضا من تقنية الحوار ليعبر بها عن التوجهات الايديولوجية لكل شخصية من خلال الجدال والمناقشة لأهم معطيات الواقع فالكتابة قلب منهجي لعلاقة القوة بين الحاكم والمحكوم وليست مجرد كلمات مكتوبة، كما أنها سبيل من سبل إخفاء المادية المروعة لإنتاج محكوم ومروض على هذا النحو من الضيق المبالغ[2] ، فمع تغير الحافز الايديولوجي الذي تحكم في ابداع السبعينات والذي انحصر في الاشتراكية والثورة الصناعية ومحاولة التشبع بالفكر الماركسي والشيوعية، تحولت الكتابة الروائية من التعبير الواضح والصريح عن الأفكار والدفاع المستميت عنها إلى رمزية المشهد وجمالية الصورة وتناصية الأحداث، جعلها كل هذا تدخل في نسق تجريبي متجدد يترك المجال للقارئ ليحدد توجهه دون تعسف أو تحيز لايديولوجيا دون أخرى، ويعود كل ذلك لارتباط الرواية كفن بعلم الاجتماع.

3. شعرية الوطن:

تعد فكرة الوطن غالية داخل كل نفس إنسانية وهو ايديولوجيا تسع كل الأطر الفكرية الأخرى من اجتماع وسياسة وتاريخ وثقافة وحضارة، وهنا كان لزاما أن نميز بين مفهوم الدولة ككيان سياسي وإداري وبين الوطن؛ فالأولى قابلة للتغيير عبر الزمن،

(1)المصدر نفسه/ 49

(2) محمد كامل الخطيب، الرواية والواقع، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1. 1981، ص: 107

ولكن الوطن يبقى الملاذ الوحيد والدائم للشعب، حيث يسعى الروائي لتوظيف «تجربته الحياتية بأبعادها النفسية والايديولوجية التي يتبناها ومجمل الايديولوجيات الموجودة في مجتمعه وعصره وأشكال انعكاساتها في ذهنه وفي أذهان الناس الذين يحيا معهم»[1]، كفرد ينتمي إلى هذا الوطن يحمل همه ويسعى لتقديم الأفضل له، وتجسيد هذه الفكرة يعد من صميم الصناعة الشعرية التي تتحكم في الإبداع ومنبع للايديولوجيا التي تتحكم في مصير الأمم والأوطان، ولتمثيل هذه الثنائية استندت إلى ثلاثية أحلام مستغانمي.

يجد بطل ذاكرة الجسد نفسه في حواره مع ذاته واستحضاره للذكريات في مفارقة عجيبة: أين تكمن الحرية في الوطن أم في الغربة!؟ ويقول: « الآن نحن نقف جميعا على بركان الوطن الذي ينفجر ولم يعد في وسعنا إلا أن نتوحد مع الجمر المتطاير من فوهته وننسى نارنا الصغيرة... اليوم لا شيء يستحق كل تلك الأناقة واللباقة، الوطن نفسه أصبح لا يخجل أن يبدو أمامنا غير لائق»[2].

جاء هذا المونولوج مفعما بأجواء الحزن على وطن تداعى تحت وطأة العنف الدامي، ويعود البطل إليه بعد سنين طوال من الغربة ليشيع جثمان أخيه الذي اغتيل إثر مظاهرات 1988، ومن أجل ايصال حجم الفاجعة جاء هذا المقطع السردي في صورة شعرية جسدت الوطن في الأول بركان تتطاير حممه وما علينا- حسب خالد بن طوبال- إلا التوحد معه في مجاز رمزي بأن نحتضن الوطن وننقضه مما هو فيه، أما الجزء الثاني فاستعار فعل النفي لصفة في الإنسان (لا تخجل) وكأنه إنسان من كثرة حزنه لا يأبه بمظهره، كانت هذه الأحداث بداية التغيير السياسي والايديولوجي في الجزائر من خلال التخلص من هيمنة الحزب الواحد والانفتاح على تعددية حزبية ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه، ولكن الأمر لم يكن زهيدا حيث دفع خيرة شباب الجزائر الثمن حين اغتالهم الجيش بحجة التمرد على النظام.

تجسدت ثنائية (الوطن والغربة) بكثرة في الثلاثية، وانقسمت شخصياتها بين العيش في باريس وقسنطينة، ذلك أن هذه الثنائية تعد «سهم يتحرك في اتجاهين ولكن من

(1) عمار بلحسن، الأدب والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص94.

(2) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط11، 1992، ص23.

منطق واحد: هو الوطن ونحو هدف واحد هو : تملكه، ذلك أن الغربة والهجرة عن الوطن تحرك يستهدف أساسا تملكه»[1]، ولكن مهما هاجر الإنسان يبقى الوطن الحضن الذي يتمنى أن يرجع إليه دائما «في أية لحظة بالذات أخذ الوطن ملامح الأمومة، وأعطاني ما لم أتوقعه من الحنان الغامض والانتماء المتطرف له»[2]، وفي تساؤل عن الزمن يحول الوطن إلى أم تمنح أبناءها الحنان والقوة لمواجهة العالم ومواصلة المسير، فعند انهيار اليوتوبيا في وطنك ويغدو تجسيدها مستحيلا تتحول إلى حلم مغاير في الغربة، مادام الإنسان مغتربا في وطنه لعله يجد كرامة العيش في أوطان أخرى.

تدرك الروائية جيدا دور الوطن في النفوس وتحاول بلغتها الشعرية أن تقدسه وأن تمنحه بعض العرفان بالجميل، أن تعزيه وتمسح الغبار عن ألوانه في قولها: «أولئك الذين ظنوا أن جثمانه قد يمر سهوا في غفلة من الوطن، أن موته قد يكون حادثا لا حدثا في تاريخ الجزائر..تراهم توقعوا له...جنازة كتلك؟...انهيار صاعق للأشياء وطن يغمى عليه يدخل حالة من الهستيريا يبكي رجاله كالأطفال في الشوارع يهتفون «إنا هنا» تخرج نساءه ملتحفات بالأعلام الوطنية، حاملات مع موتاهن، رجل لم يحكم كي تغطي صوره الشوارع...إنما كي تغطي صورة الجزائر صور القتلى الذين يملئون صفحات الجرائد.. رجل لم يمش يوما باطمئنان على تراب الوطن، تحمله القلوب أمواجا بشرية نحو التراب»[3]، ظهرت اليوتوبيا من جديد لتنتعش مع حضور محمد بوضياف كرمز ثوري وأمل شعبي إلا أن هذا الفرح لم يدم طويلا ليتلاشى مع اغتيال بوضياف على المباشر، فينهار الوطن في موجة عنف لم يشهدها من قبل ولتكشف لنا هذه الحادثة زيف الايديولوجيا الحاكمة في مناداتها لتحسين أحوال الوطن والمواطن، فعندما بدأت البوريتارية تكتشف زيف هذا النظام سد عليها الطريق من خلال اغتيال مرشدها نحو الحرية من الفساد والبيروقراطية.

يحيلنا هذا المشهد الروائي لحادثة اغتيال (الرئيس/ الأمل) بلغة شعرية مفعمة بالحزن ترثي الوطن لوفاة رجل كان طوق النجاة لكل الجزائريين الذين شيّعوه إلى مثواه

(1) يمنى العيد، في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجيدة، بيروت، ط 1، 1983، ص226.

(2) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص27.

(3) أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، ط5، 1995، ص338.

الأخير، حاملين الأعلام الوطنية يبكون الجزائر وأحلامهم وتتجسد شعرية الوطن هنا من خلال العلاقة بين «الشعرية والسياسة وهو أمر بإمكان الجميع ملاحظته، لكنه يستدعي تفكيرا في نظرية اللغة وفي التاريخ»[1]، وتفكير في الوطن وما آلت إليه أوضاعه، ومن الملاحظ أن روايات العشرية السوداء ناقشت أكثر المواضيع السياسية تأزما والتي خلقت الفوضى التي عاش فيها الشعب الجزائري ما يزيد عن عشر سنوات.

استعارت الروائية فعل الإغماء لتصف به حالة الجزائر في تلك الفترة وهي تودع رجلها الثاني كإنسان يفقد وعيه ويدخل في حالة هستيريا لفرط الصدمة، وفي المشهد السابق تذكر كلمة الوطن أربع مرات، وكلمة الجزائر مرتين في مقتطف سردي لا يتعدى بضع أسطر.

وتتضح علاقة البطلة (حياة) مع الوطن في معاناتها وإحساسها بالاغتراب في مدينتها فيبرز الصراع بين قسنطينة والعاصمة، إلا أنها في كل ذلك تستند إلى « توليد صورة مثالية للوطن بالتوافق أو الخلاف، وهي التي تحفر قسماته في ذاكرة الأجيال»[2]، ليصبح الخطاب الروائي أكثر شعرية وأكثر خصوبة بمعانقته لفكرة الوطن ولفعل الحياة المتجدد.

خاتمة:

من خلال ما قدم سابقا كان لزاما على الروائي أن يربط نصه بالواقع وبالايديولوجيات التي تتحكم فيه مع حفاظه على الطابع الأدبي والفني للرواية بكونها مادة لغوية في المقام الأول تنفتح على دلالات متعددة تجعلها ذات طابع ديناميكي وحيوي، من خلال انشاء علاقات مع مختلف الثقافات والرؤى وتفسح المجال لتعدد الأصوات والايديولوجيات في بنية جمالية متكاملة دون أن يطغى عنصر على الآخر.

وتجلت الايديولوجيا في الجزائر أكثر من خلال الصراع القائم على الوطن، في المرحلة الأولى مع المستعمر الفرنسي وفي الفترة الثانية تشكلت في تأسيس الجمهورية والذي استلزم صعود فئات دون أخرى، لتكون الفترة الأخير أشد أكثرا من خلال

(1) هنري ميشونيك، راهن الشعرية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، منشورات الاختلاف، الجزائر.

(2) صلاح فضل، تحولات الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1، 2001.

العشرية السوداء وسيطرة ايديولوجيا دينية في مواجهة أخرى سياسية، مما شكل عنف وخوف سيطر على الساحة والقتل يتربص بك من حيث لا تدري، لتنزوي اليوتوبيا للوراء مغلقة أبوابها رعبا من تأزم الوضع أكثر في ظل ضبابية الصورة، في حين نجد أنها قد تحققت في استقلالنا عن المستعمر الفرنسي الظالم والمستبد، ومازال الصراع قائما في كل أوطاننا العربية .

المراجع

- إبراهيم زكريا، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، د ت، دط.
- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط11، 1992.
- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، ط5، 1995.
- بول ريكور، محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2001.
- تدوروف، مفهوم الأدب، تر: منذر عياشي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط: 1، 1990.
- جهاد عطا نعيسة، في مشكلات السرد الروائي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001.
- حميد لحميداني، النقد الروائي والايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990.
- رولان بارت، درجة الصفر للكتابة، تر: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002.
- السبرغ ياكوف، المنحى السيسيولوجي في النقد الأدبي، ترجمة نوفل نيوف، مجلة الآداب العالمية، اتحاد كتاب العرب، دمشق، عدد 1، 1978.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 2001.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان، ط1، 1996.
- صلاح فضل، تحولات الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1، 2001.
- عبد الحميد هيمة، دلالة المكان في رواية (سرادق الحلم و الفجيعة)، مجلة الموقف الأدبي، السنة الثانية والثلاثون، آذار 2003، العدد 383.

- عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط7، 2003.
- عثمان ميلود، شعرية تودروف، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.
- علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي، دراسات نقدية، دار الشروق، عمان، ط1، 1997.
- عمار بلحسن، الأدب والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- عمرو عيلان، الايديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، ط1، 2001.
- محمد المسيري عبد الوهاب، الايديولوجيا الصهيونية، دراسة في عالم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983.
- ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، تر: حمال شحيد، معهد الإنماء الحضاري العربي، بيروت، 1986.
- نبيل منصر، الخطاب الموازي، للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للنشر، ط1، 2007.
- هنري ميشونيك، راهن الشعرية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2.
- يمنى العيد، في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجيدة، بيروت، ط 1، 1983.